«عالم أفضل» يبنيه الأميركيون: الرواية بديلا عن الواقع

نهلة الشهال | جريدة الحياة

2008.02.17

علقت الإدارة الأميركية على اغتيال عماد مغنية، أحد أبرز القادة العسكريين لحزب اللّه، باستخدام جملتها السحرية والغامضة: «سيكون العالم أفضل من دونه»، وهي صيغة باتت معتمدة من الادارة إياها للإحاطة بأحداث مشابهة، وقد استخدمتها تكرارا بخصوص العراق بينما كان الواقع ينحدر بسرعة نحو الجحيم.

يثير الأمر عدة نقاط:

ـ توحي العبارة بأن ثمّة ورشة جارية لإصلاح العالم، لجعله أفضل، وتحسب كل إضافة أو إزالة حاصلة في السياق، كنقاط ايجابية او سلبية تخصّ ذلك الجهد الهندسي، يقيّمها ملاحظ أعلى يمتلك الخرائط ومذاك يتحوّل «العالم» إلى ساحة تجيز التدخل الفاعل كي يتم تطبيق الخرائط وتنفيذها. أما التقرير الناجم عن التدخل فيرتكز الى علم مكنوز في بطن صاحبه: أفضل، أسوأ ـ وهكذا. لقد بتنا بعيدين تماما عن فلسفة التقدم المتبلورة عبر التاريخ، والتي تمتلك على الأقل قوانين ومقاييس تصلح كمرجعيات موضوعيّة فكيف يكون العراق مثلا اليوم»أفضل»؟ أفضل من نظام صدام حسين، تعلو أصوات موضحة. وهل مصير العراق محكوم جبرا بالخيار ما بين كارثتين؟ ثم من يقرر الأفضل والأسوأ، وما رأي مئات ألوف القتلى على الهوية الطائفية أو العرقية، أو ملايين المشردين داخل البلاد وخارجها يا ترى؟ وما رأي كل هؤلاء القوم من العراقيين، علما وكتّابا بشكل عام، واختصاصيين في ميادين متنوعة، اقتصادية واجتماعية وثقافية، الذين يشيرون الى خراب في كافة الميادين تلزمه عقود للاستعادة والترميم، على فرض انتهاء الحالة الاحتلالية فوراً، أم أنهم جميعهم مخطئون إذ يصرون على الاكتفاء بقراءة واقعهم المعيش، ولا ينساقون للرواية عن الواقع التي يقدمها لهم الأميركان؟ وعل أية حال، فليس لذلك أي أهمية، فهؤلاء جميعهم المذكورون آنفاً، لا يملكون أدوات ايصال روايتهم لأي مكان،علاوة على انهم إما مسحوقون تماما، أو عاجزون عن الإحاطة بكل عناصر واقع شديد التعقيد والتغير، يمر بحالات من العنف والتفكك، فيبدو غير قابل

للتأويل، لقد تعدّى الامر فكرة أن» المنتصر يكتب التاريخ»، نحو السعي الى تعطيل عملية الفعل في التاريخ نفسه، أي شن حرب استباقية، سياسية واعلامية ونفسية، تعتمد على وسائل متنوعة وممتدة تؤدي الى تشكيل أغلبية ساحقة مستهلكة للرواية المهنية، بينما تجري على الأرض حرب فعلية من لحم ودم، للقضاء على الجيوب المقاومة، بوصف هؤلاء المقاومين رعاعا، أو إرهابيين او الاثنين معا. وهي سيطرة توتاليتارية تحدث من دون استخدام الوسائل التوتاليتارية التقليدية والمعروفة.

_ الرواية عن الواقع: تلك هي الغسالة. وهي وإن كانت ليست جديدة البتة- فالبشرية لم تكفّ يوما عن انتاج الروايات عن الواقع بأشكال مختلفة وتحت مسمّيات شتى- إلا أن الجديد هو توظيف هذا الفن ليسيطر على كل شيء، عادما في زمن الاستهلاك المطلق كل حيز آخر. هنا يحدث تداخل غير مسبوق بين السياسي والاعلامي لكتابة وإنتاج وإخراج وتسويق- هكذا بالتتابع كما في صناعة الأفلام- حكاية سردية مثيرة، مليئة بالتفاصيل الشيقة وبالانفعالات، ولكنها وفي الآن نفسه ترتكز على البداهة او البساطة، فيصبح الكلام الآخر عن الوقائع ذاتها ثقيلا، اختصاصيا، وغير مفهوم، وهو كلما أمعن في تقديم المعطيات وتكديسها، يزداد عجزا عن التأثير وهزيمة أمام جبروت الآلة الصانعة للرواية. وقد قال أحد أساتذة الصحافة في جامعة كولومبيا الاميركية انه «لم يعد هناك نقاش حول الافكار بل معركة روايات»، ما يطلق عليه اخصائيون آخرون تناولوا الظاهرة «استراتيجيا شهرزاد» في السياسة! وعلاوة على خبرائه المشهورين عالميا، فقد خرج هذا الفن من الظل فباتت له مدارسه، بل مواد تدريسه- وتحتاج الآلة التي تدور على هذا النحو إلى تغذية دائمة، وإلى سرعة في الانتقال من مشهد الى آخر، حيث تستهلك اللحظة فيلزم غيرها، وتتم الاجابة عن حدث بحدث سواه قابل لأن يطغى عليه. لقد مارس رئيس الجمهورية افرنسية الحالي، السيد نيقولا ساركوزي، هذا الفن الجديد على بلاده ليفوز، مقدما مزيجا من الوعود الجذابة، والجمل المصاغة بحيث تقول كل شيء ولا تقول شيئا، والوضعيات بدلا من البرامج، ثم منتجا»خبرية» شبه يومية عن طلاق فزواج وما بينهما من أحاييل وخيانات، فحكايات القصر وصراعاته التي لا تنتهي. والسيرة، لجدتها ولغرابتها عن التقاليد الفكرية الفرنسية، تقدم نموذجا سهل الملاحظة والتحليل، ولكنه يس فريدا، أما أساتذة ذلك الفن غير المنازعين فالأميركان طبعا.

_ فإن قيل أن عماد مغنية هو أحد قادة المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي، ينتصب بوجه هذا القول سجل حافل يحوّل الرجل الى شيء من جيمس بوند وسوبر مان معا. فمن قرأ ما تداولته شبكة الانترنت من روايات مصدرها دوائر اعلامية- استخباراتية اسرائيلية وأميركية وبريطانية، وذلك بعد ساعات قليلة على اغتياله، يُذهل حقاً. فهو في كل كان، من جنوب لبنان الى فلسطين الى شمال وجنوب العراق الى أفغانستان، وقبلها الى الأرجنتين، وهلمّ جرا، مخترقا كل العلاقات والوضعيات، مختزلا بشخصه كل المهمات، فإن كانت صناعة رمز بطولي من قبل أصحابه حاجة مفهومة، وتبقى الغالب في مستوى حرفي، فما قام به أعداؤه يفوق بكثير ذلك المستوى: إن العالم أفضل من دون ذلك الشيطان الجبار! وإن قيل إنه، مع الأقرار بما يعنيه الاغتيال من ضربة لحزب اللّه في معركة تسجيل النقاط إلا أنه الجهاز العسكري للحزب لا يتوقف على عماد مغنية الذي أُتيح له، على فرض الإقرار بكل العناصر الاستثنائية تلك، كل الوقت اللازم والفرص لإنشاء وتدريب سواه، يبدو هذا الموقف العقلاني وكأنه غناء خارج السرب أو اللحن، كسر للإيقاع.

_ اما إذا جرى التشكيك بكل شيطانية الرجل، كالدفع مجددا بانه مقاوم وليس إرهابيا، فذلك كمن يعتدي على مقدّس: ألا تكفي ملاحقته من أنتربول وأجهزة الاستخبارات «العالمية» لتأكيد صفة الإرهاب؟ ثم لا يجري حقا نقاش حول هذا الموضوع، فصوت اعتراضي من هذا القبيل ضعيف الى حد مقابل قرع الطبول ذاك، بحيث يغدو قولاً حميماً وليس علنياً.

_ أمّا التطرق الى المسائل المهمة من قبيل وقوع اغتياله في قلب العاصمة السورية دمشق، والاحتمالات والمعاني المتعددة التي يثيرها الحدث، فيصبح هو الآخر رهينة الرواية الأصلية، تلك المليئة بالعجائب والألغاز، وليس مجالا لنقاشٍ في السياسة . فيجري هكذا اختتام إخراج الاحداث الأحداث من زمنيتها. هل قلت سياسة؟ بل مسرحية على الاغلب.